المحاضرة الرابعة

من أسس البحث التاريخي: كيفية التعامل مع المصادر التاريخية / (02)

ثالثا- الكتابات غير التاريخية:

ومن المصادر الأصلية كتابات غير تاريخية إلا أنها تكشف عن نواحي هامة في العصر الذي كتبت خلاله، مثل الوثائق المختلفة والتي أشرنا إليها. فهذه الوثائق لم يقصد بها أن تكون تاريخا للعصر وإنما كتبت للغرض الذي صيغت من أجله كالمراسلات والعقود والسجلات إلخ ... ولعلها بذلك تكون أقرب للتصديق والثقة .. فكاتبها ليس مؤرخا يكتب معبرا عن وجهة نظره أو عما يحب أو يكره ويقصد أن يؤثر على القارئ فيما يكتبه، فهذا حال المؤرخ الذي ينقل الحوادث من وجهة نظره في الأغلب.

أما كاتب الوثيقة فقد كتبها للغرض الذي كتبت من أجله فقط ثم حفظت هذه الوثائق وبمرور الزمن أصبحت شاهدا على العصر وظروفه وتعاملاته. وعلى سبيل المثال فهناك وثائق للوقف على المؤسسات الدينية فى العصر المملوكى تعدّ كنزا للبحث عن أسرار الحياة فى العصر المملوكى، لأن الذى أنشأ مؤسسة دينية كالمساجد والأضرحة والتكايا والزوايا و الخوانق والأربطة (جمع رباط) كان يجعلها مؤسسة جامعة للتعليم والمعرفة و أنواع البر والصدقات، ففيها مكتبة ومكتب لتعليم الصبيان ومدرسة لتعليم الطلبة البالغين ومساكن للصبية وللطلبة والمدرسين والموظفين العاملين فى الخدمات كالفراش والسّقاء وخازن المكتبة والمؤذن وأشخاص من الصوفية يقيمون فيها للعزلة والعبادة والدعاء لمؤسس تلك المؤسسة، ويكتب عقد المؤسسة وفيه بيانات بعدد الموظفين والمدرسين والطلبة والمناهج التى يدرسونها من تفسير وحديث و قراءات و فقه على

المذاهب الأربعة، وطريقة التدريس ومواعيد الدرس وواجبات الطلبة و المدرسين و بقية الموظفين، وقواعد الاستعارة من المكتبة، و شروط التعيين وقواعد العمل طيلة اليوم، والآداب المفروض التزامها ، و العقوبات المقررة ومبررات العزل والطرد إلى ما شابه ذلك..

بالاضافة الى قواعد صرف المرتبات والمكافئات العينية والنقدية، وكيفية إدارة الأراضى الموقوفة على تلك المؤسسة أو المحلات التجارية، وقواعد التعامل مع الفلاحين والعمال والمستأجرين وما إلى ذلك.

وكلها تفصيلات تصور بطريق غير مباشر الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقلية والدينية للعصر المملوكى، وبالطبع تمت صياغتها بعفوية لتعبر عن عصرها دون أن يفكر كاتبها أنه سيأتى الوقت الذى تصبح فيه تلك العقود وثائق تاريخية نستخدمها الآن بوصفها مصادر تاريخية تعبر عن المسكوت عنه والذى أهمله المؤرخون فى العصر لتلك النواحى الاجتماعية والاقتصادية

رابعا- الكتابات المعبرة عن ثقافة العصر ومعتقداته:

وأيضا من المصادر الأصلية (الضرورية) غير التاريخية الكتابات التي تعبر عن ثقافة العصر ومعتقداته، ويأخذ الباحث منها ما يناسب موضوعه؛ فمن اختار الحياة العلمية في عصر ما عليه بالرجوع إلى مؤلفات العصر المتنوعة من حديث وتفسير وخلافه. ومن اختار ناحية في النظم كالقضاء عليه بالرجوع لما كتب في هذا المجال في عصره بالإضافة إلى كتب الفقه التي دبجها الفقهاء في عصره.

ومن توفر على درس الحياة الاجتماعية في العصر فعليه بالرجوع إلى كتب الأدب. فالأدب دائما صورة للحياة وكتب التراث الشعبي إن وجدت والمسامرات. ويتسع المجال أمامه ليرصد كل ما كتب في ذلك خاصا بالمجتمع وطوائفه وعاداته وتقاليده ومعتقداته.

وهناك نوعية من الكتابة الفقهية ،أسميتها كتب الفقه الوعظى ، وهى تختلف عن كتب الفقه العادى فى أنّها تتضمن تعليقا على ما في المجتمع، ونقدا له بهدف الإصلاح والوعظ، وقد بدأ بها الغزالى فى بعض أجزاء من كتابه " إحياء علوم الدين" ، ثم توسّع

فيها ابن الجوزى فى كتابه " تلبيس ابليس " ، وسار على نهجه ابن القيم الجوزية فى كتابه " إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان" ، وأبرزها كتاب " المدخل" للفقيه ابن الحاج العبدرى .

وكل هذه الكتب الفقهية الوعظية تأخذ طريقة النقد لما يحدث في عصر الفقيه من تجاوزات تحدث من أفراد المجتمع وطبقاته ، فيأتى كتابه جامعا بين الفقه والتاريخ الاجتماعى والدينى ، وإن لم يقصد أن يؤرخ لعصره ومجتمعه .

خامسا- الكتابات الرحلية (كتب الرحلات):

وهناك كتابات الرحالة .. وهى كنز ثمين للباحث التاريخى لأن الرحالة يسجل كل ما يراه غريبا من وجهة نظره ، وهذا الذى يعدّه الرحالة غريبا قد يراه المؤرخون من أهل البلد شيئا معتادا لا يستحق التسجيل والتدوين ، وقد تنتهى تلك الظاهرة الاجتماعية دون تسجيل ، وبعضها حظى بانتباه أحد الرحالة فقام بتسجيلها فضَمِن حفظها لنا .

كما أن الرحالة يستهويه تسجيل الحياة الاجتنماعية وعلاقاته بالأشخاص العاديين الذين قابلهم والظروف التى عانى منها ، مع تفصيل للأمكنة و الطرق والمعالم التى فى المدن من المبانى و الشوارع والأسواق و الخانات و الفنادق والمقابر وطرق السير و القوافل وعيون المياه . وكل ما يرتبط بذلك من علاقات وعادات اجتماعية وطقوس دينية ومعتقدات شعبية و لمحات سياسية وأنشطة تجارية واقتصادية ، وكلها أمور لا يهتم بها المؤرخون المحليون الذين يحومون حول موكب السلطان ولا متّسع لديهم لهذه التفصيلات الاجتماعية والأحوال الشعبية .

على أن أفضل ما فى كتابات الرحالة أنه ، وبدون أن يدرى ، يعطينا لمحات من تاريخ بلده الأصلى حين يقارن بين بلده الأصلى وما يراه فى البلاد التى يزورها ، فينقل إشارات حية عن بلده وتلك البلاد التى يزورها .

وهو فى كل ما يفعل قد لا يقصد التاريخ ولكن مجرد التسجيل ، لذا يكون أكثر مصداقية من المؤرخ ابن البلد صاحب العلاقات و المصالح والأهواء . وأشهر كتب الرحالة رحلة ناصر خسرو فى العصر العباسى ورحلة ابن جبير فى عصر صلاح الدين الأيوبى ،

ورحلة ابن بطوطة ورحلة الإدريسي، ورحلة ابن ظهيرة فى العصر المملوكى، ورحلة النابلسى فى العصر العثمانى.

وينضاف إلى ذلك رحلات الرحالة الأوربيين في العصر العثمانى مشرقا ومغربا..

سادسا. اختلافات المصادر غير التاريخية في الزمان والموضوع:

على أن هذه المصادر غير التاريخية تختلف حسب طبيعة العصر المراد بحثه كما تختلف حسب الموضوع.

فلكل عصر سماته العقلية والدينية والاجتماعية، وهذه السمات المختلفة لكل عصر تؤثر بلا شك على أتجاه المؤلفات فيه وعددها وقيمتها، ثم تأتي الاختلافات السياسية والجنسية والعرقية لتزيد من اختلافات العصور وتزداد معها الاختلافات في الإنتاج العلمي لكل عصر.

والمؤرخ الذي يبحث عصرا معينا عليه أن يعايش منذ البداية، هذا العصر ليدرك مميزاته وعيوبه وسماته الشخصية التي ينفرد بها. وعلى سبيل المثال فالعصري المملوكي كانت من سماته الأساسية سيطرة التصوف عليه، وانعكس هذا على اتجاه المؤلفات وقيمتها العلمية، وبرز جانب هام من المؤلفات كان يشيد بمناقب الأولياء الصوفية وما لهم من حظوة عند الله بزعمهم وما لهم من تصريف في الكون وما يتمتعون به من تقديس الناس.

وكتب المناقب هذه خير معين على فهم نفسية العصر المملوكي ومعتقداتهما الدينية والاجتماعية.. وفيه نبض العصر المملوكي الفعلي.

وإذا انتقلنا إلي العصر العثماني وجدنا السمات الأساسية فيه الجمود والتخلف مع شدة التأثير الصوفي، ولذلك كله انعكاساته على نبض العصر ومؤلفاته وتحركاته..

وعليه فالباحث مطالب بفهم نفسية العصر، وبرجوعه إلى كتب الطبقات التى تؤرخ لعلماء كل عصر فسيعرف الاتجاه العام لمؤلفي عصره، خصوصا إذا راجع مؤلفاتهم،

ومن هنا يتمكن الباحث من تحديد المصادر غير التاريخية التي تعينه في بحث موضوعه في ذلك العصر .

سابعا-ومن الضروري للباحث أن يكتب في مفكرة خاصة خواطره وتعليقاته على كل مصدر اعتمد عليه ، واتجاه مؤلف الكتاب وعقليته ونبذة عن تاريخه مستقاة من بين سطور كتابه ، ومدى ما استفاده من ذلك المصدر ليذيل بذلك تعليقاته على المصادر عند الانتهاء من كتابة البحث.

ببليوغرافيا المحاضرة

المصادر

جلال الدين السيوطي :

– التعريف بآداب التأليف، ، القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي، 1998.

– المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، محمد أبوالفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية: القاهرة، ط 4، 1958.

خير الدين الزركلي:

–الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ، دار العلم للملايين: بيروت ، ط 12، 1997.

ابن أيبك الصفدي:

– أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق عدد من المحققين بإشراف مازن المبارك، دار الفكر: بيروت ، ط1.

المراجع العربية:

حسن عثمان:

– منهج البحث التاريخي، ، القاهرة : دار المعارف بمصر، ط 2، 1965.

فاروق حمادة:

– منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً، دار القلم: دمشق، ط 1، 2000.

يحيى وهيب الجبّوري:

– منهج البحث وتحقيق النصوص، ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1993.

إبراهيم، درويش مرعي:

– إعداد وكتابة البحث العلمي: البحوث ورسائل الماجستير والدكتوراه، مكتبة الفاروق الحديثة، القاهرة. 1990

أبو سليمان، عبدالوهَّاب إبراهيم:

– كتابةُ البحث العلميِّ ومصادر الدراسات الإسلاميَّة، دار الشروق، جدَّة. 1400هـ

المراجع المترجمة:

بارسونز، س ج:

- فنُّ إعداد وكتابة البحوث والرسائل الجامعيَّة، ترجمة :أحمد النكلاوي ومصري حنورة، مكتبة نهضة الشرق: القاهرة، 1996م

والدو، ويليس:

- خطوات البحث والتأليف: دراسة منهجيَّة لفنِّ كتابة الرسائل الجامعيَّة، ترجمة : محمَّد كمال الدين، دار اللواء: الرياض، 1986.